

فضاءات جديدة

تابعت اكثر من مرة البرنامج التلفزيوني (السكوت جهراً) في فضائية النيل الأزرق. ورغم العنوان المثير الذي يكتنف المضمون إلا أن دلالاته الإجتماعية والنفسية تحتمل أكثر من تفسير وتحمل أكثر من معنى .. من مواجهه للواقع .. ومصارحه مع النفس ... ومصادمة مع الآخر... ومقاومة لأنماط السلوك التقليديه .. وأخيراً توعية في قالب جديد! ورغم أن كل البدايات كالعادة في كل شئ جديد .. قد تهز المشاهد ..إما بجرأتها أو في حداثتها أو للإفراط في توصيل مضمون الرسالة (موضوع الحلقة)، أو التفريط في جرعة الصراحة المطلوبة بين المتحدث والمتلقى (أسلوب التعبير)، إلا أنني أؤكد اعجابي الشديد بكل نهج جديد يربط بين الأجيال ويقوى الإتصال فأثرت الإستمرار في المشاهدة رغم الحرج من المشاركة خاصة من خارج الاستديو.

لقد كانت الموضوعات عموماً جيدة المضمون .. ومطروحة فكرياً بكثرة في الساحة .. ولكن التناول كان لا يخلو من "شطحات" .. ان مجتمع الشباب .. هذه الشريحة الهامة ورأس المال الوحيد للاستثمار في الاقتصاد الجديد لأى دولة في المستقبل .. خاصة في السودان، وفي عصر العولمة والتجارة الحرة تحتاج الى ان يكون لها صوت مسموع وتستحق ان تجد أذناً صاغية .. وان لا يكون هذا مشروطاً بفضل فقه الضرورة وفرض الواقع وانما بالقناعة الراسخة لدى الجيل القديم ان يمد حبل الود ليتواصل مع الجيل الجديد .. ويسلمه الرسالة بالوضوح الذى يتناسب وفهمه في المرحلة العمرية والفكرية والنفسية .. إن الحرية غريزة انسانية مقدسة يسعى لتحقيقها كل انسان .. ولكنها قد تكون قوة مدمرة اذا لم يحسن استقلالها بالقدر المناسب و في الوقت المناسب و بالصورة المناسبة. و لنا عودة في هذا الإطار في المستقبل باذن الله.

والواقع يقول أن الندوة الأخيرة من خلال الحوار حول .. قيمة العمل لدى الشباب .. وأهمية العمل و اشكالية الربط بين التحصيل الأكاديمي والعمل الوظيفي كانت بضعة محاور تدور حول "عبادة العمل" و تؤكد أن الفكرة بدأت تتضح .. وأن الزخم الأول الذى خرج كالسهم من كنانة الفارس الملمث وأصاب المشاهد المتوجس بالرعب و ارتعاش المفاصل وكالاعصار من أعالي البحار يجرف قوارب المبحرين في بحار السكينة يبحثون عن بر الأمان .. بدأ يهدأ .. وبدأ الزبد يذهب جفاء وبقي في الأرض ما ينفع الناس.

لقد كان النقاش حول فضيلة العمل كقيمة انسانية للشباب دون منظور العائد المادى والتحصيل الاكاديمي والوضع الاجتماعى والمكانة الشخصية .. نقاشاً ثراً أبرز النظرات الواضحة و الرؤى الناضجة للشباب في هذا المفهوم كما دلت على النضج المبكر لشريحة كبيرة من المجتمع تعي طبيعة المشكلة .. وتتمسك طرق الحلول. كما أبرز الفجوة الواسعة بين القابض على الجمر والقابض على الماء .. الذى يتقلب في لهب العطالة والذى ينعم ببطالة الإستقرار .. وغياب الحوار بين من يعيش التجربة ومن يجيد التمثيل وبين الفئة المترفة التى تنعم ببريق العاصمة القومية .. وترف الفضائيات .. والدعم المتواصل من الأسرة القادرة على العطاء .. والوقت الغارق في الفراغ الذى يطمس بريق النفس .. وبين الفئة المحرومة والمهمشة فى الأرياف التى لا تشاهد التلفزيون ولا تقرا الصحف وبالكاد تسمع "اذاعة ام درمان" .. لو وجدت الوقت الذى يسمح لها بالجلوس فى مكان هادئ أو غرفة مضيئة مكيفة.

ان كل هذه الفوارق يجب ان تؤخذ بالإعتبار فى طرح قضايا الشباب .. بطريقة علمية و مدروسة ومبرمجة بصورة تمتد من الألف الى الياء وليس العكس .. وتندرج من الأهم الى المهم بعيداً عن عنصر الدهشة وفلسفة

الصدمة التي عادة ما تلجأ إليها بعض الفضائيات بحثا عن التميز في الطرح أو التفرد في الاداء لإستقطاب الجمهور.

لقد أعجبنى النقاش وأكبرت في شبابنا هذا الإدراك الواسع لمعطيات العولمة وضرورات التغيير .. وليت شاركهم بعض أمثالنا من الديناصورات الحية من الجيل السابق .. ليربط الأجزاء المفككة في حلقة النقاش حيث يحدثهم عن تجربة الدول التي يكون فيها سائق السيارة (الشوفير) يتمتع بأكبر صفات الدبلوماسية ويدخل أعظم الصالونات .. ويتعاطى مع أرقى الطبقات ويجيد أجمل اللغات ،وقد يكون خريج أكبر الجامعات لأن المجتمع كله تجاوز الآن "الابتدائية" وأصبحت الشهادة الجامعية .. بطاقة هوية تخرج صاحبها من دهليز الأمية لا أكثر ولا أقل و لا تجعل منه بالضرورة مشروع وظيفة.

لعل أحدا يذكرهم بقضية الصراع القديم المتجدد بين دبلوم المعهد الفنى(جامعة السودان)، وبكالوريوس الهندسة الجامعية (جامعة الخرطوم) في تاريخ التطور الأكاديمي في السودان .. بين الذى "ينظر" فى الورق تحت سقف المكتب والذى ينفذ فى أرض الواقع تحت شمس الضحى.. كيف كان الحال .. وكيف صار الآن .. ولماذا؟ قضية تطور كان لابد ان تصل الى نهاية منطقية تعلى فضيلة العمل اليدوى على مزايا التخطيط النظرى ... والمثل الصينى يقول: "لا تطعمنى سمكة ولكن اعطنى سنارة وعلمنى كيف أصطاد".

وأخيرا ينبقى أن نؤكد على فضيلة العمل .. وأن نساعد الشباب الذى لا يريد أن يجتر مأساته كالمعزة فى ظل القيلولة من بيت إلى آخر تحت ظل الحيطان بالنهار وتحت أعمدة الكهرباء بالليل يبحث عن الطعام الجيد والسكن المريح ولكن الشباب الذى يبحث عن العمل .. ويطمع أن يملكه أدوات الانتاج فى المصنع والحقل .. (وليس بالخبز وحده يحيا الانسان) .. وليس بالوظيفة فقط تجلب الاحترام .. (والسبّاك الشاطر أفضل من الطبيب الفاشل) والحبل على الجرار.

لقد كانت هذه الحلقة خطوة متطورة شكلا ومضمونا فى مسيرة البرنامج ومادة تعليمية ذات قيمة أخلاقية أخذنا وعطاء أبرزت الوعى الواضح فى فهم أولويات المجتمع و حساسيات طيف المشاهدين .. وجزى الله القائمين عليها كل خير. فقد قال أبو الطيب المتنبئ:

و تأتى على قدر الكرام المكارم

على قدر أهل العزم تأتى العزائم

و لنا عودة باذن الله

دكتور الزين عباس عمارة - أبوظبى